



الإيديولوجية الهامشية للهوية الغجرية في الحقبة الكولونيالية
- دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية " الغجريحبون أيضا"
لواسيني الأعرج

The Marginal Ideology of Gypsy Identity in the Colonial
Era: A Cultural Anthropological Study in the Novel
'Gypsies Also Love' by Waciny Laaradj

صليحة تباري¹ منيرة نوري²

¹ جامعة لونيبي علي- البلدية 2-(الجزائر)، es.tebbani@univ-blida2.dz

² جامعة عمار ثليجي – الأغواط- (الجزائر)، Mo.nouri@lagh-univ.dz

ملخص:

يتمركز الخطاب ما بعد الحداثي حول القضايا العملاقة لطبيعة المجتمعات الهامشية، سيما الغجرية منها، التي تنبني على مرجعيات فكرية وثقافية ذات إيديولوجيات عنصرية، تركز جملة من المعتقدات فرضتها الإمبريالية، والتي تقصي من خلالها الآخرين ثقافات ما بعد حداثة.. وقد رصد الروائي العالمي واسيني الأعرج مظاهر الاستلاب والاستبعاد التي عانى منها الغجري في كافة الكرونوتوبات، محاولا خلخلة الصور الاجتماعية والثقافية وأبعادها على الساحة الثقافية العالمية، وتسعى دراستنا في هذا الصدد إلى نقد الهويات القاتلة لتغيير مبدأ المجتمع الهامشي وتجسيد مجتمع ديمقراطي يلغي مفهوم نفي الذات.

كلمات مفتاحية: الإيديولوجية، الخطاب الكولونيالي، الغجر يحبون أيضا، الهامشية

Summary:

Postmodern discourse centers around the monumental issues of the nature of marginal societies, particularly the Romani, which are built on

intellectual and cultural references with racist ideologies that reinforce a set of beliefs imposed by imperialism, thereby excluding the other according to postmodern cultures. The global novelist Waciny Laaradj has captured the manifestations of alienation and enslavement experienced by the Romani across all chronotypes, attempting to disrupt social and cultural images and their dimensions in the global cultural arena. Our study, in this regard, aims to critique the lethal identities to transform the principle of the marginal society and embody a democratic community that abolishes the concept of self-negation.

Keywords: ideology, colonial discourse, Gypsies Also Love, marginality

1. مقدمة :

يستنطق النقد المفاهيم الخفية المستندبة من لدن الثقافات العالمية، الرامية إلى القطيعة الاجتماعية وإرساء مفهوم النفي للذات الشرقية بالدرجة الأولى، وللذات المستفيكية في إيديولوجية بيروقراطية لا إنسانية تشرذم الكيان المجتمعي وتعزز الفكر الاستيطاني.

وبما أن المشاعر المعادية للعجم ليست وليدة العصر، إذن فهي انجراف نازي اضطره الإنسان العجري وعادى معتقداته، فجعل منه إنسانا غريبا أينما التجأ كُرس هامشيته لتُثبت كقانون سائر المفعول، ممّا أحدث اضطرابا في الكيان العجري يكشف عن مدى التسلط الذي ألحق به، لكي يتجرد من ذاتيته وتراثه الثقافي.

فقد تجلت الرؤية السياسية في رواية "العجم يحبون أيضا " بأبعادها التهميشية وإيديولوجياتها الطبقية، لتعزز التعصب والعنصرية، وتضعهم في السلم البروليتاري ما جعلهم يسعون إلى العيش فقط لا أكثر، وهذا ما يعرف بالتسلط؛ أي أنّ التسلط الحكومي حسب جون بيتي هو "مقولة خاصة للعلاقات الاجتماعية تتضمن إمكانية إكراه الآخرين في هذا النظام أو ذاك من العلاقات بين الأفراد والجماعات"¹، ما جعل العجم يدافعون عن كيانهم بأي وسيلة كانت.

لذا ألصقت بهم صفة الهمجية والعنف كتعبير عن إثبات الوجود وحفاظا على هويتهم وتكريسها، فمهما ألحقت بهم الاضطهادات لازالوا متمسكين بهويتهم العجرية، وهذا ما عبرت عنه العجرية أنجلينا لحبيها خوسي "لا تلمني حبيبي على عصياني، كلما تعلق الأمر بحريتي، ذلك رهاني الأوحده حتى أودع الحياة وأجد من يدفني، أو حتى يرميني للضباع الجائعة ليس

الإيديولوجية العنصرية للصومالية العجيرية في الحقبة الكولونيالية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية "العجير يحبون أيضا" لواسيني الأعرج _____ (العدد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025)

مهما، ألم أولد عجيرية؟²، فما كان منا إلا أن نتبنى إشكالية مفادها كالاتي: كيف أثرت الإيديولوجيات العنصرية في تهميش فئة الأقليات كالعجيرين؟ وهل يمكن للتكاتف الإيديولوجي المتباين أن يلغي مفهوم الهويات القاتلة ويؤسس للديمقراطية الإيديولوجية؟ يبدو أن الفكر المعادي للأقليات رسخ صفة اللاوجود لدى العجيرين، الذين يشعرون بأن لا كيان لهم ولا وجود، لذا تراهم كسراب بلا انتماء، فغاية بحثنا هذا إلغاء التسيّد الهوياتي للإيديولوجيات الكولونيالية، وإرساء قوانين تجابه الانحرافات العنصرية. وقد اعتمدنا في دراستنا لهذه المعضلة على منهج النقد الثقافي المناسب للقضايا السوسيوقافية، استكناهاً للأنساق الثقافية المتوارية خلف الخطابات السردية العربية، سيما الجزائرية كمنجزات الروائي العالمي واسيني الأعرج، البارع في تصيد القضايا الحياتية؛ ضحايا الفكر الكولونيالي وما بعد الكولونيالي.

2- ماهية الخطاب الكولونيالي وفاعليته في القضايا السوسيوقافية.

2-1 تجلي الإيديولوجية الكولونيالية في الخطاب السردى الجزائري:

ينصاع التاريخ للخطاب الأقوى الذي فرضه اليسار السياسي بثناء أساليبه البوليتيكية التي كثيرا ما تحمل رؤى تنعكس على الواقع الاجتماعي والثقافي، فتتجمل عن ذلك تيارات ليبرالية قومية تعود جذورها للفكر النهضوي، الذي يخاطب الطبقة الأعمق في الوعي، فتتدفق عن ذلك مشاهد سياسية تقسم المجتمعات إلى طبقات يصفها النظام الاستبدادي، الذي يستضيف المعاني السياسية بين دهاليز أفكاره الرهيبة، ودكتاتورياته الموارية للحقائق، والممارسة للسلطويات ضد الأقليات من الهويات المضادة للخطاب الكولونيالي، المنبني على التمييز بين الغرب والشرق وبين الغربي والفئات الأقلية، سيما إيديولوجيًا.

" فالأفكار والثقافات أشد خطرا من قوة السلاح وأكثر تأثيرا في الأفراد والجماعات، وما يشهده العالم اليوم ليس غزوا عسكريا فحسب؛ بل غزوا علميا وثقافيا له تأثيره الواضح والرهيب على نفسية الشعوب الضعيفة"³، والاستهانة بها ورسم صور مزيفة عنها تناقلتها المجتمعات الرأسمالية باتجاهات مغلوطة، تحمل صور إنكار الآخر ويعتريها الانغلاق الثقافي، رغم الشعارات اللامعة التي تضمّر تفكيراً عنصرياً ضد العجير بمعان مختلفة وإيديولوجيات

متباينة تنم عن عقدة النقص فيه، التي تحولت إلى نظرية العنف حسب المفهوم القانوني الذي ينطلق من أن العنف الممارس على الأقليات ما هو إلا مكبوتات مورست عليه من أزمان، ولم ينعتوا أنفسهم بالإرهاب مثلما نعتوا العرب المسلمين والغجر الذين يدافعون عن كياناتهم المعدوم، وهذا ما عبّر عنه الميتادور خوسي مستذكرا قول أحمد زبانا الذي يرى "أن السلطات وضعت مواطنتين واحدة للفرنسيين القادمين من هناك، ونخبة من الأوروبيين، ومواطنة في الحضيض للبقية بما فهم بعض الإسبان والغجر والمسلمين"⁴، ليرد عليه صديقه الصياد النقابي حميد متحسرا من الحالة التي آل إليها الفكر الكولونيالي وظلمه اللامنتقطع "الظلم مهما طال سيتوقف في وقت من الأوقات، المشكلة في تعريف الإرهاب، هل الذي يدافع عن حق مسروق ولا يملك وسيلة لاسترداده إلا العنف، إرهابي؟ أزيلوا الأسباب تزول النتائج، معادلة بسيطة"⁵، وهذا ما يجب مجابته تصحيحاً لبعض المبادئ وتقويضاً للاستعمار الثقافي.

2-2 فاعلية الإيديولوجيا الكولونيالية في الخطاب السردى الجزائري:

يتبين أن الكولونيالية هي مرادف للعنف الثقافي والإيديولوجي وعنوان للاضطهاد والظلم، الذي عانت منه الأقليات بعد أمد بعيد من الاحتقار وتصنيف الرعايا الذي دأبت على تكريسها الإيديولوجيا الكولونيالية، التي ترى تفوقها على غيرها كثقافة بيضاء تؤمن بوجود هرمي، وتصعد بخطابات إنسانية ليبرالية غزت العالم وأعجزت كل من دونه في مسردية تسوق للتطور والثقافة الحضارية لتتشظى على إثرها كل الهويات ويتعمم الفكر الرأسمالي، فيحدث انقساماً مانوياً انجرت عنه فجوة ضدية أسست عداءً لا متناهيًا يتضافر على إثره محركان التاريخ والهوية الثقافية.

وقد تشكلت الهوية الكولونيالية كنتيجة حتمية للانقسام الذي أحدث بفعل عملية الإقصاء الممارسة على العرب والمسلمين والغجر؛ مثلما تمارس على الحيوانات فـ "كل البسطاء والمهمشين يشبهون ذلك الثور تقرر موته مهما كانت جرأته الدفاعية وشجاعته"⁶ فعملية الإسقاط التي أجراها الروائي العالمي واسيني الأعرج في متنه السردى كانت كفيلة بأن تحدد الممارسات الضدية التي يتلقاها كل من الغجري الذي يعامل ككائن حي لا يمتلك أدنى الحقوق برغم سعيه الدؤوب من أجل العيش، كذلك الثور الذي يروض وفي

الإيديولوجية الماسخية للصورة العجورية في الحقبة الكولونيالية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية
"العجور يحبون أيضا" لواسيني الأخرج _____ (العدد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025)

الأخير تُبنى عليه المؤامرة من قبل مجموعة منسجمة ليقع بينهم جثة هامة، فيتم الثناء على المبتادور كبطل ظاهري.

إلا أنّ الممارسات العنيفة قد مورست على الثور قبل المنازلة، كذلك التآمر بين الدول الليبرالية على الدول العربية والإسلامية، وعلى كل من يناهض النظام الرأسمالي بأيدولوجياته الكولونيالية خاصة العجور، فحتى "الإسبان ما يزال يُنظر لهم نظرة دونية، وكل السرقات التي تحدث في الأحياء الغربية من الكوريدا من وهران يتحملونها هم والعرب"⁷، فكل السياقات تبث الحقد الدفين للفرنسيين بالدرجة الأولى ضد العرب والعجور، بالرغم من إنجازاتهم ونضالهم مع فرنسا في الحرب العالمية الثانية إلا أنها تمقتهم وترنو إلى إزاحتهم، ليس هذا إلا تعبير عن عقدة النقص التي يحسها الفرنسيون فـ "المشكلة أنّ الكبار يقتلهم الصغار بخديعة ما دائما"⁸ و"أن ما يطفو إلى الأعلى هي الأشياء الحقيقية فقط وليس الحقيقية كلها"⁹ فبرغم التشويهمات المرتبة للإنسان العجوري إلا أنه يسعى إلى التعاون مع غيره دون انتقام أو تحريض، فأنثروبولوجيته مiale إلى التسامح والإنسانية رغم الأذى النفسي الذي يسببه له المستعمر خاصة أنجلينا المرأة العجورية الشجاعة التي كثيرا ما تدندن سخطا على أهلها وعلى ما يعانونه:

"نحن العجور أبناء كلب

نحب دوما من يؤذينا، ولا نتعلم

يحول قلوبنا إلى رماد، ولا نتعلم؟

أليس من الأفضل الانسحاب من حلبة الموت.

أو الاكتفاء بشفرة أستوكادا، لا ترحم."¹⁰، فهذا إذعان للمأساة التي فُطر عليها

العجوري، فتراه يُجهز ندمه على إنسانيته مع أشخاص لا يستحقونها، يمارسون النبيل الإمبريالي بكل نفاق في خطابات كولونيالية تنافي ما يضمه الرجل الأبيض في إيديولوجيات تقزم الهوية الأخيرة وتسقط كيائها.

3- إيديولوجيا الهامش في الثقافة العالمية من خلال الرواية.

3-1 الإيديولوجية الغجرية في الثقافة الجزائرية:

عانى الغجريون من الانشطار الهوياتي والعلاقة المتوترة بينهم وبين الآخر الغربي، وهوس الوطن الذي حرموا منه، ولا يطمعون أن يمتلكوه على حدّ تعبير أنجي " لا أشعر بأيّ انتماء لناس كمجرد غجرية ضائعة على أرض ليست لها وتريدها، ليس لي ما أدافع عنه سوى قلبي وحي للناس الذين يشبهونني في بساطتهم، ليس لي الحق في شبر واحد على هذه الأرض لأنام أو أدفن فيه"¹¹، فقد تجسدت إيديولوجيا الهامش في هذا المقتطف السردية، من خلال إيمان الغجر بعدميتهم التي امتنع التاريخ عن تخليدها ورصد تداعياتها التي تنم عن مشاعر مضطهدة، وفق مرجعيات فلسفية واستشراافية تذكى شعور العداء للغجر كأقلية عرقية، وتتجاهل إنجازاته من خلال الإساءات اللفظية والمعنوية، وسوء المعاملة المنتهك لمنهجية حقوقهم كإنسان، وذلك بناء على استراتيجية تحافظ على السلطة الإمبريالية متبينة الدكتاتورية التي تعتقد أن عرقها يتفوق على باقي الأجناس، مما أنتج تيار التحيز والكرهية والتعصب على أساس العرق.

وبالتالي ترسيخ إيديولوجيا الهامش التي طمست العديد من الهويات لتكون "انعطافة سلبية في تاريخها، حين تحولت إلى طبقة رأسمالية جشعة دشنت بداية حركة الاستعمار الأوروبي، فضلا عن تدبيرها حربين عالميتين لا تزال الإنسانية تعاني ويلاتهما إلى اليوم"¹²، فلا غرو إن كان على الغجريين أن يتخذوا لبوس هويتهم ويتمسكوا به رغم كل الإيديولوجيات العرقية، فقد كانوا صعاليك زمانهم، لما لهم من قوة وشجاعة أثارت دهشة النبلاء، فتأمروا عليهم وجعلوا منهم تجارب الغازات السامة، ورغم ذلك لم ينسوا أصلهم، وكانوا مثالا للعدل والتسامح رجالا ونساء، وهذا ما تجسد في شخصية البطلة أنجلينا المعتزة بأصلها وهويتها "أنا من بيت يرفض الظلم..عائلي تعرضت لكل الويلات، كغيرنا من غجر هذه البلاد، من محتشدات النازية، وتجريب غاز زيكلون في جهنم بوزنفال إلى التعقيم حتى لا تلد نساؤنا"¹³، هنا يتعدى التهميش حدوده في تجاوز إنسانية الإنسان إلى تكريس النظام القمعي والممارسات السلطوية، التي لامست الجهل في خطابات قومجية وتحرشات عنصرية تغيض كل من يشاهدها، فما بالك إن مورست عليه.

الإيديولوجية الهامشية للصورة العجرية في الحقبة الكولونيالية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية
" الغجر يحبون أيضا" لواسيني الأخرج _____ (المجلد الرابع عشر/ العدد الأول) مارس 2025

فتعتيم حقيقة الكولونيين أمر يبعث على القرف، إذ لا بد من أطر قانونية تحد من هذا التضيق الإيديولوجي والمخالفات الإنسانية التي ظل التاريخ متكتما عنها في ظل ما يعرف بالليبرالية التي تجاوزت كل الحدود.

2-3 تأثير الهامش في الهوية العجرية:

تتجلى الإيديولوجية السايكوباتية في غمس الحقيقة المرة وتوسيع الفارق بين الثقافات، ليؤسس لأعمال همجية ضد الغجر الذين يتسمون بروح الدعابة والمرح تغطية لقهرهم النفسي وشعورهم بالاغتراب، أينما تواجدوا ليعيشوا متشردين لا واثق لهم، حالتهم سيئة أسوأ من اللاجئين مهما مكثوا يتقمصون أزدل الأعمال كي لا يمارسوا سلوكيات سلبية ويعيشون من السرقة شبه المقننة "كل الغجر يعيشون بالتهريب الصغير، لكيلا يسرقوا..الحياة صعبة"¹⁴، أخالف هذا المبدأ الذي ينطلق منه الغجر لأن الذي يتمسك بمبدئه لا ينزاح عنه، فمهما كان نوع السلاح الذي يتم تهريبه فهو زهق للأرواح، أما باقي الأشياء من مأكولات وملابس فهي بمثابة جهاد مع الثوار الذين ينعتهم الرجل الأبيض بالإرهابيين، متناسيا السيل الدموي الذي أزهقت فيه العديد من الأرواح دون أدنى رحمة أو شفقة. فعقدة النقص التي تنتاب الغربي جعلته يدوس على كل من يتطرق إيديولوجيًا، لأنه يرى له المركز ولغير الفرنسيين الأصليين الهامش سواء كانوا عربا ومسلمين أو غجرا.

فقد مثلت هذه الرواية مرتكزا سرديا تغلغل في غياهب التاريخ الجزائري الفرنسي والإسباني، ليكشف عالما موبوءا تدنسه الرواسب الكولونيالية والتمايز الفئوي، الذي يعبر عن وحشية البيض اللإنسانية في أبشع صور للأبترهايد، ف "على الفرنسيين أن يغيروا من سياستهم ضد المسلمين وأوروبيي الدرجة الثانية، ويعاملوهم كما يعاملون بقية الأديان والقوميات"¹⁵، خاصة في مجال الإبادة الهوياتية وإهانة الكرامة والتحريض على دونية العرق في حملات التطهير العرقي، وممارسة سياسة التهميش ومحاربة إيديولوجيات التعايش.

فإذا تقصينا عار الكولونيالية يتبين كرهها للتقاطع الثقافي والعرق في ظل الاحتفالات بالأدوار التنويرية التي تشغل على تسييسها كوجود مصطنع وهلوسات خطابية مؤامراتية تبيد الأقليات، وهذا ما لم يرضاه العجري ف " غجر اليوم يريدون أن يعيشوا..يكرهون الموت الرخيص، دون أن يفقدوا عجريتهم..أكثر شيء يمس العجري الإهانة والمذلة"¹⁶، التي يعمل

الاستعمار على إسقاطهم فيها، من خلال ممارسة الضغوطات عليهم وخيانتهم في كثير من الأحيان والتطاول عليهم.

لذا لا بد من تهذيب الرؤية الكولونيالية للعالم الأقليمي، ومسخراته الخطابية وإبعادها على الساحة الثقافية العالمية، وهذا الإبعاد أحدث قطيعة اجتماعية بين فئات المجتمع من خلال تعميق مفهوم الاستلاب وتكريس مفهوم النفي الذات، الذي يجعل الإنسان المقصي في مواجهة عدائية مع الاستعمار وبقاياها، وبالتالي تطغى جدلية الصراع وترسيخ مفهوم الغالب والمغلوب، التي خلقتها مفرزات الكولونيالية وما بعدها.

وعليه فقد حملت رواية الغجر يحبون أيضا دلالات تاريخية أضمرت أنساقا هزتها التاريخ ولا بد من تعريتها والإمساك بها، وتدنيستها وإسقاط الفلسفة القومية للكولونيالية وترميم فجوات التاريخ، الذي نعتبره مجحفا ومنحازا للفكر الفوقي، وتفكيك بقاياها ومنغصاته.

4 - نقد الهويات القاتلة لفئة الأقليات في الرواية.

1-4 ماهية الهويات القاتلة:

الهويات القاتلة حقيقة مسكوت عنها تتبنى أخلاقية البلوريتاليا، والتي كثيرا ما شكلت أهم الإشكاليات في المنجزات السردية معلنة عن تسيدها للقضايا الراهنة، سيما ما يتماس بجدلية الأنا والآخر وما ينضوي عن ذلك من علاقات ندية تنبني على الاختلاف والمغايرة.

ولعل مفهوم الهوية يقوم على التصالح مع الذات والميل إلى إثباتها لكن ليس على حساب باقي الأعراق والديانات، مثلما خاضته الهويات القاتلة الكولونيالية؛ ذلك المسار المؤجج بالتوترات والهزات، الذي استوعبته رواية "الغجر يحبون أيضا" بثنائياتها الضدية التي فرضتها الهوية القاتلة لهوية الأقليات، التي أحدثت انقسامًا فكريًا وعرقيا أنكر دور الأقليات في الثقافة والتاريخ، "فقد تخلخلت البنى الاجتماعية وتزعزعت القيم، وفقد كثيرا منها أهميته ومكانته في المجتمع"¹⁷، التي قلبتها الذات المستعمرة الحاملة لشعارات الحضارة والتمدن، في حين أن ارتباطها جليا بالنظرية السياسية التي من خلالها تفرض هيمنتها الثقافية.

الإيديولوجية الهامشية للصوية الغجرية في الحقبة الكولونيالية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية
" الغجر يحبون أيضا" لواسيني الأخرج _____ (العدد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025)

وبالتالي ترسخ الهيمنة السياسية، التي تقصي الآخر ، وتستبعده وتذوّبه وبالتالي إلغاؤه، وهذا ما عبّر عنه فرانز فانون "إن المستعمر لا يكتفي بالقول إن القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمر، أو إنها توجد فيه يوما، وإنما هو يعلن أنّ السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ الأخلاق إلى أنفسهم، وإنّ القيم لا وجود لها عندهم، بل إنهم إنكار للقيم، أو قل إنهم أعداء للقيم، فالمستعمر بهذا المعنى هو الشر المطلق، إنه عنصر مُتلف يحطم كل ما يقابله...إنه مستودع قوى شيطانية"¹⁸، يشخص الروائي في هذا المتن السردى الاعتداء الهوياتي للكولونيين على الغجر بحملات تشويهية لكيانهم وإزاحتهم حتى عن الهوية الاجتماعية، التي ترعرعوا فيها لاختزالها لثقافتهم وتاريخهم ضمن سياقها، من خلال تمييزهم عن الجنس الأبيض.

2-4 نقد للهويات القاتلة لفئة الهامش:

بما أن الهويات هي المعيار الذي من خلاله تقوّم الشخصيات، وتبرر وجودها في مجتمعاتها، وترسم صورتها الثقافية ضمن باقي الثقافات، إذ يتبين أنّ الهوية الكولونيالية، داست على حرية الثقافات ونظام التعايش، الذي يسمح بالتمايز العرقي والديني ساعية إلى قتل كل هوية مخالفة لمبادئها، حتى وإن وافقتها تبقى سمة الكراهية بادية عليها وترمي على إزاحتها، وتسيّد الساحة الثقافية والصاق التهم بها حتى وإن كان أهلها أبرياء، فقد اعتدت سيدة فرنسية على إنجي الشجاعة واتهمتها بالسرقة فقط لأنها غجرية.

وقد جسد هذا المقتطف مدى الحقد الدفين الذي تكنه فرنسا وأولادها للأقليات بما فيهم الغجر "لم يخطئ هتلر عندما قادهم نحو الأفران مع اليهود، لو عاصرته كنت أخبرته بأن يأتي إلى وهران هي أيضا بها يهود وغجر، ويمحو هذا المكان من الخارطة"¹⁹، فإيديولوجيا الهويات القاتلة رُضعت مع لبن الفرنسيين، لذا فعلى الدراسات الأنثروبولوجية أن تعزز العلاقات الإنسانية وتحترم الهويات التي تمثل ثوابت الإنسان التي لا تتغير، فكيف إن أُلغيت؟

يمثل التماهي في الهويات تجديد في بعض مبادئها، من خلال التوازن بين التجديد و الثبات الذي يمثل حقيقته وجوهره كما يحدد انتماءه عرقيا ودينيا وقوميا، إلا أنّ المجاهرة بالهوية في أفضية مغايرة تؤدي إلى التهميش والسخرية من قبل السلطات المهيمنة ف "هي

السبب الرئيس في ذلك فتقصي مكونا ثقافيا أو أكثر لحساب مكون ثقافي آخر، مما ينتج عنه الطبقية والتهميش والاستبعاد²⁰ بدافع مرجعيات ثقافية تفرزها الهويات القاتلة كاللغة والتاريخ والعادات، فتعمل على محو أثرها بأسلوب الغزو الثقافي وحملات التنصير والاستشراف؛ تدنيسا للمعتقدات العربية الإسلامية.

بالإضافة إلى الإيديولوجيات العنصرية، التي يمكن أن تتواجد في كل البقاع مثلما تموقعت في وهران، حيث يشعر أبناء الغجر بالسخط والحقرة منذ سالف الأزمان، لما نال أجدادهم من تجريم وظلم وتعدٍ، ثمما تعدت المرأة الفرنسية على أنجي وطالبت بتفتيشها على مرأى من الناس، إلا أن أنجي علمتها درسا في احترام الغير وعدم التعدي عليهم جعل منها ومن هويتها أضحوكة "فتشيني يا وسخة، لا تختلف رائحتك عن رائحة النازيين، ألم تكن آريين من أصول هندية؟ ومع ذلك ذبحونا. فعلوا ما تفعلينه الآن معي، اعتبرونا جنسا منحطا لأننا اختلطنا كثيرا مع غيرنا من الأقوام، آريون فاسدون، لهذا كان مصيرنا في النهاية المحتشدات الجهنمية"²¹، لينجلي نسق العبودية الذي مارسه الكولونياليون على الغجر مشحونا بشبح التهجير، حتى استشعر الغجر أن لا وطن لهم ولا سماء ولا ملجأ، فهم يهيمون في الشوارع كحيوانات ضالة مهانة، تكشف عن مؤامرات عنصرية تعادي الهوية والتعايش السلمي في أوكار مدنسة، تفصل فيها الحكومة بين الأجناس، وتجابه صوت الكلمة الحرة، التي تتجاوز التابوهات الكولونيالية.

فتهديم الصورة الاجتماعية المذاعة لثقافة تطويرية تصدع بها الكولونيالية، غايتها النسقية خلخلة إيديولوجية الامتزاج العرقي وإحداث قطيعة تعصبية تتحامل على الأقليات، وتلغي الأجانب وتقسم المجتمعات طبقيا.

فبما أن العالم في تقلص يحتكم إلى العولمة والتكنولوجيا، لذا لا بد من إيصال صوت الأقليات بقوة وإدحاض الإيديولوجيات المدمرة والمستبعدة للآخر العربي والإسلامي وزحزحته عن مركزيته الأنطولوجية، التي تهدد الإنسانية وتنفي قيمها ومعتقداتها، فالرضى بالتهميش قرار إرادي لا بد من استبعاده ورفضه، واستجلال الجانب الاجتماعي في ظل ما يعرف بالتمازج الفكري والسوسيولوجي بمعزل عن الحدود الجغرافية والأركيولوجية.

الإيديولوجية العاصمية للصوية العجربة في الحقبة الكولونيالية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية
" العجر يحبون أيضا" لواسيني الأخرج _____ (العدد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025

فمنهجية الإيديولوجية الكولونيالية عاثت في الأرض فسادا، إذ لا يمكن الاندماج فيها أو التفاعل معها، لأنها ترى الأحقية القيادية لها، وأن الآخر ما هو إلا تابع وإنسانها متبوع، فهو حسب منظورها منزّه عن الخطأ "فكلما حدث مشكل، لا بد أن يكون وراءه عربي أو غجري أو إسباني... هذه عنصرية معلنة"²² يعترها الوعي الدوغمائي الذي يدحض الآخر المخالف، ويتسرب مع المستويات الفنية للخطاب السياسي في قصيدة إقصائية، ذات نزعة تهمكية تفكيكية تستشف النظام القمعي، الذي يقود المجتمع المناهض إلى بؤر الجهل في صور ضمنية تكشفها الخطابات السردية، وتفضح زيفها في صور جوانية تستنطقها المقاربات النقدية.

إذ تبين أن النظام الكولونيالي معادٍ للهوية الآخريّة، وسياسة مقننة في تخطيط الوعي الديمقراطي كمنهجية تنويرية يتناول على إيديولوجيات أخرى بدافع الهيمنة، ولا يسعى إلى التناغم الأنطولوجي ثقافيا واجتماعيا.

5- خاتمة:

دأبت إيديولوجيا الكولونياليزم إلى إحداث فجوة عميقة بين الذات الإنسانية والهوية، تُشعر الآخر بالحصار والتضييق في صورة منافية للإنسانية، ترسخ للهويات القاتلة التي تهيمن على الثقافة، لينشأ مثقف لا منتهي يعيش حالة من الاغتراب، كالتّي عاشها العجر جراء الإيديولوجيات الغازية، والتي يرنو الروائي إلى إزاحتها من خلال متنه السردية، ومن جملة النتائج المتوصل إليها من خلال هذه الدراسة نذكر:

- أسهمت الإيديولوجية الكولونيالية في خلق هوة ثقافية بين الذات الغربية وغيرها، أحدثت اضطرابا فكريا تحول إلى تيار خطير يمس بمصداقية الإيديولوجيا الإنسانية.
- العلاقة بين الإيديولوجية الكولونيالية والعجربة هي علاقة تشابك وإلغاء القوى الكولونيالية المهيمنة للذات العجربة كنوع من الأقليات.
- يهدف العجر إلى إثبات ذواتهم من خلال المحافظة على هويتهم وثوابتهم وتقاليدهم، بالرغم من التهميش الذي نالهم على مرّ الأزمان في كل الأفضية.
- يمثل الآخر العربي والعجربة كيان مرتحل لا يُعتدُّ به من قبل الثقافة الإمبريالية.

- الأبارتهايد الذي فرضته الثقافة الجديدة الكولونيالية هو خيار سياسي وإيديولوجي يشجع على الكراهية.
- الإبادة الهوياتية كشفت مؤامرات الكولونيالية في تسيدها للعالم وإلغاء الآخر مهما كانت مكانته.
- مثلت رواية الغجر يحبون أيضا مرآة عاكسة كشفت كل الأنساق المخبوءة متمردة على الحملات الشوفينية، والتطهيرات العرقية في هلوساتها الخطابية التي تُنظر للعنصرية.
- الهامش العرقي قضية راهنة لا بد من وأدائها وتقصي جذورها في مساءلة تاريخية تحاور التابوهات وتغير مبدأ المجتمعات الرأسمالية، سيما والعالم في غرفة صغيرة تتطلب توثيق أطر التواصل، وتهديم الصورة النمطية المسيطرة على العالم وإلغاء نظام الوعي الطبقي وتطهير العالم الثقافي من رواسب الاستعمار.

6. مراجع البحث وإحالاته :

- ¹ جورج بالاندي، الأنثروبولوجيا السياسية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 2007، ص 54.
- ² واسيني الأعرج، الغجر يحبون أيضا، موقف للنشر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، د ط، 2019، ص 11.
- ³ سمير خليل، طانية خطاب، دراسات ثقافية- الجسد الأنثوي- الآخر- السرد الثقافي، دار ضفاف للنشر، الشارقة، بغداد، د ط، 2018، ص 43.
- ⁴ واسيني الأعرج، الغجر يحبون أيضا، ص 71.
- ⁵ المصدر نفسه، ص 71.
- ⁶ المصدر نفسه، ص 55.
- ⁷ المصدر نفسه، ص 90.
- ⁸ المصدر نفسه، ص 117.
- ⁹ المصدر نفسه، ص 118.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص 43.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص 176.

**الإيديولوجية الهامشية للصورة الغجرية في الحقبة الكولونيالية - دراسة أنثروبولوجية ثقافية في رواية
" الغجر يحبون أيضا" لواسيني الأعرج _____ المجلد الرابع عشر / العدد الأول / مارس 2025**

¹² محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ الأوروبي، رؤية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 2009، ص 173.

¹³ واسيني الأعرج، الغجر يحبون أيضا، ص 49، 50.

¹⁴ المصدر نفسه، ص 256.

¹⁵ المصدر نفسه، ص 240.

¹⁶ المصدر نفسه، ص 131-132.

¹⁷ صالح هويدا، الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيو ثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2015، ص 56.

¹⁸ فرانز فانون، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، جمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، ط2، 2015، ص 43.

¹⁹ واسيني الأعرج، الغجر يحبون أيضا، ص 116.

²⁰ صالح هويدا، الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيو ثقافية، ص 92.

²¹ واسيني الأعرج، الغجر يحبون أيضا، ص 100.

²² المصدر نفسه، ص 191.

قائمة مصادر ومراجع البحث:

- 1 - جورج بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2007.
- 2 - واسيني الأعرج، الغجر يحبون أيضا، موفم للنشر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 2019.
- 3 - سمير خليل، طانية خطاب، دراسات ثقافية- الجسد الأنثوي- الآخر- السرد الثقافي، دار ضفاف للنشر والشارقة، بغداد، 2018.
- 4 - محمود إسماعيل، المهمشون في التاريخ الأوروبي، رؤية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2009.
- 5 - صالح هويدا، الهامش الاجتماعي في الأدب قراءة سوسيو ثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2015.
- 6 - فرانز فانون، معذبو الأرض، تر: سامي الدروبي، جمال الأتاسي، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، 2015.